العرب
الخميس 2020/05/28
السنة 42 العدد 11714

الدراما لها وظيفة تثقيفية أهملها العرب

المسلسلات الغربية تشبه الأعمال الأدبية والبحوث الفلسفية

قد يرى البعض أن الأعمال الدرامية مجرد منتج للاستهلاك، يستهلكه المتفرجون من خلال التلفزيون، ويحققون من خلاله المتعة والإثارة فقط. لكن الأعمال الدرامية لها وظائف أخرى أبعد من الاستهلاك، إذ هي تثقيفية كما أنها ناقدة، تساعد المتلقي على تغيير أفكاره وتطوير معارفه ونقد واقعه.

مسلسل «لاست» يساعد مشاهديه على تطوير شخصياتهم

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

لن أنتقد أي مسلسل رمضانيّ، لأني صنت نفسي هذا العام عن مشاهدة أيّ واحد منها، من أيّ بلد عربيّ كان، برغم الحجر، وتوافر القنوات العربية لديّ.

ولكن ما أقرأه من مقالات هنا وهناك يكشف إما عن ضحالتها الفنية والمضمونية، أو عن احتفائها بمشاهد الرعب والعنف، أو عن تركيزها على ما صار ينهش مجتمعاتنا من فوضى وفساد وإدمان ودعارة، أي كل ما لا يتناسب مع شهر فضيل تجتمع فيه الأسر لمشاهدة ما ينمّي فيها الوازع الأخلاقي ويقدّم في أسلوب فنّي فهما صحيحا لقيمنا الإسلامية، أو يروّح عن أنفسها بعد ضيق، خصوصا في ظرف كتب عليها فيه أن تظل حبيسة بيوتها.

الدراما والثقافة

لقد كانت المسلسلات الرمضانية حتى وقت قريب تحوم حول محورين هامّين: التاريخ الإسلامي بأبطاله وأعلامه وفتوحاته، والواقع الاجتماعي منظورا إليه من زاوية الهزل والطرافة.

> المسلسلات الجادة في كثير من البلدان، تقوم بدور الكشف عن مشاغل إنسان هذا العصر وتطلّعاته

ثم انقطع المحور الأول بضغط أميركي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فاختفى تقريبا كل ما يتعلق بتاريخ الإسلام الذي زعم الأميركان أنه سبب ظهور الإرهاب في ديارنا، وبقي المحور الثاني، أي الهزليّ، ثم توسّع ليشمل في الغالب مسلسلات تعالج الواقع الاجتماعي لا محالة، ولكنها تتناوله من جهة التحولات الاقتصادية والاجتماعية وأثرها في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وانتصاراتهم وانكساراتهم، دون أن تنحدر إلى تصوير مشاهد العنف والرذيلة التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات، احتراما لعاداتنا وتقاليدنا، لأن المسلسلات التي تدخل البيوت بلا استئذان هي غير أفلام السينما التي يسعى إليها المتفرج بقدميه.

ولما كانت كذلك، فالغاية منها لم تكن لشدّ اهتمام المشاهد بأي طريقة طمعا في ما يأتي من ورائها من عائدات إشهار، بقدر ما كانت تحرص على تثقيف المشاهد، ودعوته إلى اكتشاف مظاهر التقدم والتحديث، وتغيير رؤيته للعالم، وفي الأقل مساعدته على فهم واقعه وتبين موقعه منه.

كذلك شأن المسلسلات الجادة في كثير من البلدان، فهي تقوم بدور الكشف عن مشاغل إنسان هذا العصر وتطلّعاته، وتغوص في نفسية أبطاله لتبرز قيم الخير التي يعملون على ترسيخها، وتعرّي أضدادهم لتري المشاهد من خلال سيرتهم مغبّة الخروج عن القانون وسوء عاقبة من يصعد السّلّم الاجتماعي بالإثم والعدوان. فأغلب المسلسلات الأميركية مثلا ليست مجرد بضاعة للاستهلاك، بل هي أعمال فنية تخاطب عقل الفرد ووجدانه، وتسعى للتأثير فيه تماما كسائر الأعمال الأدبية الكبرى.

وكنا ذكرنا في مقالة سابقة كيف أن الأستوديوهات الأميركية صارت تستنجد بالروائيين في وضع مسلسلات، على غرار نظيراتها في ثلاثينات القرن الماضي، حينما دعت وليم فوكنر، وريمون شاندلر، ونثانائيل ويست، إلى كتابة سيناريوهات عن رواياتهم، أو وضع سيناريوهات مبتكرة لأفلام سردية. ولكن في هذه المرة ناب التلفزيون عن السينما في دعوة الأسماء اللامعة أمثال ستيفن كينغ، وجوناثان فرانزن، وسلمان رشدي، ومايكال شابون إلى اقتباس مسلسلات من رواياتهم، أو المساهمة في كتابة حلقات مسلسلات، كل حسب مجال اهتمامه، أو ابتكار مسلسلات جديدة.

وقد بلغت تلك الأعمال من الجودة ما جعلها مثار بحوث فلسفية، ففي الأعوام الأخيرة، ظهر في فرنسا تيار فكري يهتم بترويج إيثيقا الفضائل من وجهة نظر فلسفية، يعتقد أصحابه أن المسلسلات تقترح نوعا من ميدان للدربة، تتردد عليه الأحداث والشخصيات طيلة أشهر وأعوام، فيألفه المشاهد، ويتبنى قيم الخير والجمال التي يطرحها، وينفر من عناصر الشرّ المناوئة، وفي التكرار عادة، وفي العادة تعوُّد، والتعوُّد جوهر الفلسفة كما يقول المفكر ماتيو بوت بونفيل، مستشهدا بأرسطو الذي كان يقول إن الخيِّر هو من اكتسب قبل كل شيء، عن طريق العادة، عادات طيّبة تساند قراراتنا وقت الحاجة.

المهمة النبيلة

في كتاب بعنوان "ستّ أقدام تحت الأرض، حيواتنا دون مصير" يقارن المفكر الفرنسي تريستان غارسيا هذا المسلسل بروايات بروست أو دستويفسكي، ويلاحظ تركيز المسلسل على طبقة متوسطة تحاول أن تحيا حياة عادية، ولكن بجعل العادي جميلا، غير مضجر، خاليا من الدروس الأخلاقية الفجّة. أما الباحث باكوم تيلومان صاحب كتاب "يد ديفيد لينش اليسرى"، فيعتقد أن المسلسلات يمكن أن تقدّم لنا إضاءات عن وجودنا، لأننا في سائر أيام السنة نعيش حُبساء عواطفنا ونزواتنا. وفي رأيه أن مسلسل "لاسْت" مثلا قد لا يغير طبيعة كل من يشاهدونه، ولكنه قد يساعد بعض مشاهديه على تطوير شخصيتهم وتحسين سلوكهم. وفي رأيه أن قوة المسلسلات تكمن في قدرتها على أن تقيم بشكل متكرر إطارا يستطيع المشاهد استبطانه.

كذلك سندرا لوجيي أستاذة الفلسفة بالسوربون، فقد نشرت في أكتوبر الماضي كتابا بعنوان "حيواتنا في مسلسلات" بيّنت فيه كيف أن المسلسلات غيّرت كل شيء: حياتنا، علاقتنا بالثقافة، أوقات فراغنا، ولم تكتف باحتلال موقع متقدم في سجل السرديات الكبرى للقرن الواحد والعشرين، بل صارت تنتج فلسفة، ليست فسلفة مسلسلات، بل أعمال فكر حقيقية، لأنها باستنادها إلى عناصر السرد التقليدية في الرواية والسينما تضع عددا من الأفراد، أبطالا وبطلات، أمام امتحان الحياة العادية، وبدل الأخلاق التقليدية، تبني جملة من الوضعيات والتجارب وأنماط الحياة، وتخلق لدى المشاهد نوعا من الكفاءة، تُهيِّئه لجدل ديمقراطي جديد.

ولكن تأثير المسلسلات لا يسير في اتجاه واحد، فقد تخلق المسلسلات أحيانا سلوكيات يمكن وصفها باللاأخلاقية. فممّا يذكره ماتيو بوت بونفيل عن سلسلة "24" مثلا أن الجيش الأميركي أعرب عن قلقه من إمعان المجندين الشبان في ممارسة التعذيب، ثمّ أظهر تقرير أن دأب البطل جاك باور على تبني ذلك السلوك أقنعهم بأنها طريقة عادية في الاستنطاق. ولئن كانت السلسلة تلحّ على غرس فكرة مفادها أن الروح الوطنية فوق كل اعتبار، فإن هذه الفكرة تتنكر للقيم الإنسانية، وتفتح الباب لمعاملة الأميركان بالمثل، وهو ما يحيد بالفن عن مهامّه النبيلة.

كذلك الشأن لدى مشاهدي بعض المسلسلات التونسية مثلا، خصوصا تلك التي جعلت أبطالها منحرفين وتجار جنس ومخدّرات، فقد وجدت صداها لدى الشّباب الذي يميل به طبعه إلى تحدي الأعراف والتقاليد، لاسيما أن الشخصيات المحورية لا تحمل بعدا إنسانيا ولا تدافع عن مبادئ وقيم، وأوهمهم بأنها المثال والقدوة، ووجدنا من الفتية من صار يتشبه بهم في هيئتهم وخطابهم وسلوكهم، مثلما وجدنا من الفتيات من لا ترى حرجا في مخالطتهم وحتى الاقتران بهم.

والسبب أن معظم القنوات التلفزيونية تهمل البعد التثقيفي للعمل الدرامي، إمّا عن قصد لأن صاحب القناة أو المنتج لا يهمّه غير استقطاب المشاهدين ولو بإثارة الغرائز بدعوى فضح المسكوت عنه، وإما عن قلة وعي ودراية حين يُعهد التأليف لغير أهله. ومن مهازل هذا العام ما تناقلته وسائل الإعلام عن مسلسل رمضاني فاشل تقمّص فيه ممثل نكرةٌ كل الأدوار الممكنة، فهو كاتب القصة والسيناريو والحوار وهو المخرج والبطل. ولولا ضيق ذات اليد لكان هو المنتج أيضا.

شهر كامل من الأفلام على الإنترنت

الشارقة – تقدم مؤسسة الشارقة للفنون بالتعاون مع منصة حبيبي كولكتيف، وهي أرشيف سينمائي رقمي يحتفي بأعمال المخرجات من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، سلسلة من عروض الأفلام على الإنترنت تبث في الفترة ما بين 29 مايو و26 يونيو 2020.

وتشمل الأعمال المقترحة للعرض أفلاما قصيرة وروائية طويلة ووثائقية وتجريبية مميزة لفنانات من العالم العربي، حيث يمكن الوصول إلى البث المباشر لهذه الأفلام التي سيتم عرضها، عبر الرابط الذي سيتم نشره على الموقع الإلكتروني التابع للمؤسسة، وحساباتها على وسائل التواصل الاجتماعي في يوم العرض.

تركز العروض المقررة ضمن هذا البرنامج على ثيمة مختلفة في كل يوم، حيث تعرض في 29 مايو تحت عنوان "باسم الحب: الهوية الذاتية في السينما النسائية في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا"، أفلاما قصيرة تفكك السرديات السائدة في الروابط الأمومية ومعايير الجمال وقصص الحب والطهي وأرشفة الذكريات، وتشمل عروض 29 مايو، التي تبث في تمام الساعة الثامنة والنصف مساء بتوقيت دولة الإمارات العربية المتحدة، خمسة أفلام هي: "قصة حليب وعسل" (2011) من إخراج اللبنانية بسمة الشريف، "كازينو المحار" (2018) من إخراج بام ناصر من الولايات المتحدة، "سقوط معيار الجمال: الأنف الإيراني" (2019) من إخراج سحر غوريشي (المملكة المتحدة)، "طاقم الحياة" (2019) إخراج الإماراتية موزة المطروشي، و"شرقي" (2019) من إخراج شاهين فلاحي من المغرب.

ويستعرض الفيلم التجريبي "قصة حليب وعسل"، الذي يعتبر جزءا من مشروع أكبر يضم صورا فوتوغرافية ولوحات ونصا، حيث يروي رجل مجهول حيثيات محاولته كتابة قصة حب في لبنان، ويتماوج صوت الراوي مع الصور والرسائل والأغاني، وتتطور حكاية الهزيمة إلى استكشاف متعدد الطبقات لكيفية جمع المعلومات وفهم الحقائق وإعادة تكوين التاريخ.

عُرض الفيلم في فورم إيكسباند ضمن مهرجان برلين السينمائي (2012)، وفي الدورة السابعة عشرة من المهرجان الدولي للفن المعاصر لشبكة فيديو برازيل (2011–2012)، ومهرجان روتردام السينمائي الدولي (2012)، وهو من مقتنيات مؤسسة الشارقة للفنون وأُنتج بمنحة الفنون البصرية من مؤسسة مارسيلينو بوتين، سانتاندير، إسبانيا.

أما فيلم "كازينو المحار" فيروي قصة حياة أربع نساء لاتينيات، حيث تستميت أرسليا للتواصل مع غلاديس، والدتها الأنانية وذات اللسان السليط، في حين تتعارك روسيو مع لاورديس، ابنتها المراهقة الكتومة. تستخدم كلتا الابنتين التكنولوجيا لسدّ الفراغ، ولكن هل سيجدن طريقة للتواصل الصادق؟

وسبق لفيلم "كازينو المحار" أن فاز بجائزة أفضل فيلم قصير في مهرجان لا فيمي السينمائي (2018)، وجائزة التجربة الإخراجية الأولى من جوائز أونيروس السينمائية، ساينت فنسنت، إيطاليا (2018)، والجائزة الأولى في فئة أفضل الأفلام المعروضة في مهرجان كلية الفنون البصرية للأفلام القصيرة، نيويورك (2018). وعُرض في مهرجان نيو أورلينز السينمائي (2018)، ومنصة الشارقة للأفلام (2019).

ويقدم الفيلم الوثائقي "سقوط معيار الجمال: الأنف الإيراني"، المكون من جزأين مع خلفية من الموسيقى التقليدية الإيرانية، مقابلات مع الشباب الإيرانيين في الشتات الذين يخضعون لمعايير الجمال الغربية الضارة، ويثير حوارا مهما حول كيف يمكن لمجتمع الشتات الإيراني أن يعاني من ضغوط خلال نشأته في الغرب، حيث يعرض الجزء الأول عينة من المشاركين التي تقدّم أفكارها وتجاربها حول معايير الجمال الغربية، فيما يواصل الجزء الثاني المحادثات معهم، مع التركيز على انتشار الجراحة التجميلية وحب الذات.

مشهد من فيلم «كازينو المحار»

> العروض المقررة ضمن هذا البرنامج تركز على ثيمة مختلفة في كل يوم وتقدم لمحة عن السينما المعاصرة

فيما يوثق فيلم "طاقم الحياة" عملية صنع الخبز، وقد أنتج هذا الفيلم بتكليف من بي.بي.سي.نيوكريتيفز، مع معهد الفنون المعاصرة لندن (2019)، وتم عرضه كجزء من معرض "انتقالات راهنة" في معهد الفنون المعاصرة.

وتعرض شاهين فلاحي في فيلمها "شرقي" مشاهد لنساء يتمشّين في الريف، وبينما تتشكل الحركات النسائية وتتلاشى، يستحضر الفيلم طبيعة الذاكرة والتذكر والنسيان.

أما العنوان "شرقي" فهو كناية عن "الرياح الشرقية" التي تحمل هذه الذكريات. عُرض هذا الفيلم في مهرجان الفيلم العربي، سان فرانسيسكو (2019).